وبهذا يتبيَّن أنَّه لا منافاة أصلًا بين ما ذُكر في الكتاب والسنة من قربه تعالى ومعيَّته وبين ما فيهما من علوِّه تعالى وفوقيَّته.

فهذه كلها نعوتٌ له على ما يليق به سبحانه، ليس كمثله شيءٌ في شيءٍ منها.

[القرآن كلام الله]

(وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلامَ غَيْرِهِ.

وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ (عَنْهُ)[1]، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

(وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ المعَانِي، وَلَا المعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ)[2].

قوله: ((وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ ...)) إلخ. جعل المصنِّف الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله داخلًا في الإيمان بالله؛ لأنَّه صفةٌ من صفاته، فلا يتمُّ الإيمان به سبحانه إلا بها، إذ الكلام لا يكون إلا صفةً للمتكلِّم، والله

---

(١) زيادة من الأصل.

(٢) ليست في الأصل.

سبحانه موصوفٌ بأنَّه متكلِّم بما شاء متى شاء، وأنَّه لم يزل ولا يزال يتكلَّم؛ بمعنى أنَّ نوع كلامه قديمٌ وإنْ كانت آحاده لا تزال تقع شيئًا بعد شيءٍ بحسب حكمته.

وقد قلنا فيما سبق: إنَّ الإضافة في قولنا: القرآن كلام الله؛ هي من إضافة الصفة للموصوف، فتفيد أنَّ القرآن صفة الرب سبحانه، وأنَّه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه، بصوت نفسه.

فمن زعم أنَّ القرآن مخلوقٌ من المعتزلة؛ فقد أعظم الفِرية على الله، ونفى كلام الله عن الله وصفًا، وجعله وصفًا لمخلوق، وكان أيضًا متجنِّيًا على اللغة، فليس فيها متكلِّم بمعنى خالق للكلام.

ومَن زعم أنَّ القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله؛ كما تقوله الكُلَّابية، أو أنَّه عبارة عنه؛ كما تقوله الأشعرية؛ فقد قال بنصف قول المعتزلة؛ حيث فرَّق بين الألفاظ والمعاني، فجعل الألفاظ مخلوقة، والمعاني عبارة عن الصفة القديمة؛ كما أنَّه ضاهى النصارى في قولهم بحلول اللاهوت (وهو الكلمة) في الناسوت (وهو جسد عيسى عليه السلام)؛ إذ قال بحلول المعاني التي هي الصفة القديمة في هذه الألفاظ المخلوقة، فجعل الألفاظ ناسوتًا لها.

والقرآن كلام الله؛ حيث تصرَّف، فمهما كتبناه في المصاحف، أو تلوناه بالألسنة؛ لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله؛ لأنَّ الكلام - كما قال المصنِّف - إنَّما يضاف إلى مَن قاله مبتدئًا؛ لا إلى مَن قاله مبلِّغًا مؤدِّيًا.

وأما معنى قول السَّلف: ((منه بدأ وإليه يعود))؛ فهو من البدء؛ يعني: أنَّ

الله هو الذي تكلَّم به ابتداء، لم يُبْتَدَأْ من غيره، ويحتمل أن يكون من البُدُو؛ بمعنى الظهور؛ يعني أنَّه هو الذي تكلَّم به وظهر منه، لم يظهر من غيره.

ومعنى: «إليه يعود»؛ أي: يرجع إليه وصفًا؛ لأنَّه وصفه القائم به، وقيل: معناه يعود إليه في آخر الزمان، حين يرفع من المصاحف والصدور؛ كما ورد في أشراط الساعة[1].

وأما كون الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله داخلًا في الإيمان بالكتب؛ فإنَّ الإيمان بها إيمانًا صحيحًا يقتضي إيمان العبد بأنَّ الله تكلَّم بها بألفاظها ومعانيها، وأنَّها جميعًا كلامه هو؛ لا كلام غيره، فهو الذي تكلَّم بالتوراة بالعبرانية، وبالإنجيل بالسريانية، وبالقرآن بلسان عربيٍّ مبين.

(وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ (بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ

---

(١) يشير إلى ما رواه ابن ماجه (٤٠٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٤٧٣ و٥٤٥٠)؛ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٣٥٦) (٢٠٢٨). عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا: «يَدْرُس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب؛ حتى لا يُدْرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولَيُسرى على كتاب الله عزَّ وجلَّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز؛ يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: (لا إله إلا الله)؛ فنحن نقولها».

قال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٢/٢٩١): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/١٩): إسناده قوي، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٨٩)، والوادعي في «الصحيح المسند» (٣٠٣).

ويدرس؛ يعني: ينقرض. ووشي الثوب: نقشه. قال الألباني تعليقًا على الحديث: «وذلك لا يكون قطعًا إلا بعد أن يسيطر الإسلام على الكرة الأرضية جميعها، وتكون كلمته هي العليا».

وَبِرُسُلِهِ)[١]: الإِيمَانُ بِأَنَّ المؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا[٢] سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ.

[رؤية أهل الموقف ربهم]

يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى).

قوله: ((وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ ...)) إلخ؛ تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربِّهم عزَّ وجلَّ في الجنَّة؛ كما دلَّت على ذلك الآيات والأحاديث الصريحة، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها.

غير أنَّ قوله: ((يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ)) قد يوهم أنَّ هذه الرؤية أيضًا خاصة بالمؤمنين، ولكن الحق أنَّها عامَّة لجميع أهل الموقف؛ حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم[٣]؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية[٤].

---

(١) في الأصل: بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

(٢) في الأصل: لَيْسَ دُونَهَا.

(٣) انظر: رسالة شيخ الإسلام لأهل البحرين في رؤية الكفار ربهم من ((مجموع الفتاوى)) (٤٨٥/٦-٥٠٧)، فقد فصَّل فيها الشيخ رحمه الله، وفي الرسالة فوائد تربوية عظيمة.
وانظر الفصل الثالث من كتاب ((دلالة القرآن والأثر على رؤية الله تعالى بالبصر)) للشيخ عبدالعزيز الرومي.

(٤) (أقول بل ما يفيده ظاهر كلام شيخ الإسلام من أن الكفار لا يرونه في عرصات القيامة هو الحق كما يفيده قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [سورة القيامة] فقسَّم الوجوه إلى قسمين =

= ناظرة وباسرة، و ظاهره أنها غير ناظرة وذلك في يوم القيامة، ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى في المطففين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] والمراد به يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويدل لذلك أيضاً قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه إلى أن قال: وتبقى هذه الأمَّة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون)، وفي حديث آخر (إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذنٌ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله إلا يتساقطون في النَّار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من برٍ وفاجرٍ أتاهم رب العالمين) وفي حديث آخر (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قال وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثمَّ ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدنيا أليس ذلك عدلًا من ربكم؟ قالوا: بلى. فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا قال: ويبقى محمد وأمته فيأتيهم الرب عزَّ وجلَّ. ويدل لذلك ما جاء عن السَّلف الصالح من أن الكفار لا يرون الله قال محمد بن عبدالله بن الحكم وقد سئل هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة؟ قال: لا يراه إلا المؤمنون، وقال السفاريني في شرح عقيدته: وقد قيل: إن الكفار كالمنافقين يرونه ثمَّ يحجبون عنه فتكون الحجبة حسرة عليهم، وخص النووي الخلاف بالمنافق وأما الكافر غير المنافق فلا يراه تعالى اتفاقاً كما لا يراه غير العقلاء من سائر الحيوانات والله أعلم. اهـ. (ص٢٥٠ ج٢) الطبعة الجديدة.

وأما استدلال المؤلف بالآية فغير صريح فإن الإتيان لا يلزم منه الرؤية فقد يأتي الآتي إلى المكان فيراه البعضُ ولا يراه البعضُ الآخر كما هو مشاهد.

ثم إنِّي رأيت في حادي الأرواح لابن القيم (ص ٥٧ ج٢) أن في المسألة ثلاثة أقوال لأهل السُّنَّة أحدها: لا يراه إلا المؤمنون. الثاني: يراه جميع أهل الموقف من مسلم وكافر ثمَّ يحتجب عنه الكفار. والثالث: يراه المؤمنون والمنافقون دون الكفار. وقد قال قبل ذلك: فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه في عرصات القيامة بل والكفار أيضاً كما في حديث التجلي. ا.هـ. لكن تأملت حديث التجلي فلم أجد فيه ما يدل على أن الكفار يرون ربهم على وجه صريح بحيث يصلح لتأويل ظاهر الآية: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] فإن تأويلها يحتاج إلى نص صريح =

والعَرَصَات: جمع عَرَصة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

(فَصْلٌ[1]: وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِه.

[الإيمان بفتنة وعذاب القبر]

فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ[2] فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن[3] نَّبِيُّك؟

فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)[4]، فَيَقُولُ المؤْمِنُ: [رَبِّيَ اللهُ][5]، وَالإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَبِيِّي.

وَأَمَّا المرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصَعِقَ[6].

= يقوى على تأويلها. نعم في حديث التجلي إن المنافقين يرون الله تعالى وهو يقوي القول الثالث الذي نقلناه عن ابن القيم والله أعلم). (ابن عثيمين)

(١) ليست في الأصل.

(٢) في الأصل: يُفْتَنُونَ.

(٣) في طبعة الإفتاء والجامعة الإسلامية: [و ما]، والصواب ما أثبته كما في الأصل.

(٤) ليست في الأصل.

(٥) في الأصل: اللهُ رَبِّي.

(٦) يشير إلى ما رواه البخاري (١٣٣٨)، وأبو داود (٤٧٥١)، والنسائي (٢٠٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وإلى ما رواه أحمد في المسند (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وهو حديث ثابت مشهور.

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى[١]، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ.

قوله: ((**وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ...**)) إلخ؛ إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التي يقوم عليها الإيمان؛ فإنَّ الإيمان به إيمانًا تامًّا كاملًا لا يتحقق إلَّا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من أمور الغيب التي تكون بعد الموت.

والضابط في ذلك أنَّها أمورٌ ممكنةٌ أخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآلِه، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر[٢]؛ فإنَّ هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول، فأهل السُّنَّة والجماعة يؤمنون بذلك كله.

---

(١) في الأصل: إلى يوم القيامة الكبرى.

(٢) (في هذا التعبير نظر من وجهين أحدهما: أن ظاهره يقتضي تقسيم ما أخبر الصادق بوقوعه إلى قسمين: ممكن ومستحيل، وهذا خطأ فإن ما أخبر الصادق بوقوعه لا يمكن أن يكون مستحيلًا إذ لو فرض أنه يجوز أن يكون مستحيلًا لم يكن صادقاً في ذلك بل يكون كاذباً فجميع ما أخبر الصادق بوقوعه إمَّا ممكن وإمَّا واجب ليس غير، الثاني: إن تعليق وجوب الإيمان بما كان ممكناً من أخبار الصادق مثار للتكذيب والتحريف إذ كل من تصور أن هذا الشيء مستحيل أمكن على هذا الضابط أن يرد خبر الصادق لأن هذا الضابط يقتضي تعليق وجوب الإيمان بخبر الصادق بما إذا كان الشيء ممكناً ومن أجل هذا الضابط كذَّب كثير من أهل التعطيل بأحاديث نقلها الثقات عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وحرَّفوا ما لا يمكنهم تكذيبه بناء على ظنهم أن مدلول هذه النصوص مستحيل، وحينئذ فالصواب أن يقال: وكل ما أخبر الصادق بوقوعه فإنه يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر لأن الصادق لا يمكن أن يخبر بوقوع مستحيل). (ابن عثيمين)

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة؛ فينكرون هذه الأمور؛ من سؤال القبر، ومن نعيم القبر، وعذابه، والصراط، والميزان، وغير ذلك؛ بدعوى أنَّها لم تثبت بالعقل، والعقل عندهم هو الحاكم الأوَّل الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلَّا عن طريقه، وهم يردُّون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوى أنَّها أحاديث آحاد لا تُقبل في باب الاعتقاد، وأما الآيات، فيؤوِّلونها بما يصرفها عن معانيها.

[فتنة القبر]

والإضافة في قوله: «**بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ**» على معنى في؛ أي: بالفتنة التي تكون في القبر.

وأصل الفتنة وضع الذَّهب ونحوه على النَّار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة، ثمَّ استُعْمِلَتْ في الاختبار والامتحان.

[عذاب القبر]

وأما عذاب القبر ونعيمه؛ فيدل عليه قوله تعالى في حقِّ آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، وقوله سبحانه عن قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «القبر إمَّا روضة من رياض الجنَّة، أو حفرة من حفر النَّار»[١].

---

(١) (ضعيف). رواه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: (غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وقال ابن عساكر في «معجم الشيوخ» (٢/٨٦٨): (غريب جدًّا من هذا الوجه)، وضعف إسناده ابن رجب في «التخويف من النَّار» (١٨١)، وقال ابن حجر في «تخريج الكشاف» (ص: ٣٥) (رقم٢٩١): «رواه الترمذي من حديث أبي سعيد، وهو ضعيف» اهـ. وقد ضعَّفه من قبله شيخه العراقي في «تخريج الإحياء» (٣٠٢/١)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٣١).

والـمرْزَبَة – بـالتخفيف-: الـمطرقة الكبـيرة، ويقـال لهـا أيضًـا: إرْزَبَّـة؛ باهمزة والتشديد.

[الإيمان بقيام القيامة]

((وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا المسْلِمُونَ.

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالمينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ.

فَتُنْصَبُ الموَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ[1]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء:١٣-١٤]).

قوله: ((وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ...)) إلخ؛ يعني: القيامة الكبرى، وهذا الوصف للتخصيص، احترز به عن القيامة الصغرى التي تكون عند الموت؛ كما في الخبر: ((من مات فقد قامت قيامته))[2].

---

(١) في الأصل: فَيُوزَنُ فِيهَا أعمالُ العباد.

(٢) (ضعيف مرفوعًا). رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/٢٦٨). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

=

وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا؛ أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيَصْعَقُ كل من في السموات ومن في الأرض إلا مَن شاء الله، وتصبح الأرض صعيدًا جُرُزًا، والجبال كثيبًا مهيلاً، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه، لا سيما في سورتي التكوير والانفطار، وهذا هو آخر أيام الدنيا.

[النفخ في الصور]

ثم يأمر الله السماء، فتمطر مطرًا كمنيِّ الرجال أربعين يومًا، فينبت منه الناس في قبورهم من عَجْبِ أذنابهم، وكل ابن آدم يبلى إلَّا عجب الذنب[1].

حتى إذا تمَّ خلقُهُم وتركيبُهم؛ أمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية، فيقوم الناس من الأجداث أحياء، فيقول الكفَّار والمنافقون حينئذ: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، ويقول المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ

= والحديث ضعَّف إسناده العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/٧٩)، والألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٦٦).

(١) يشير لما رواه البخاري (٨/٥٥١)، ومسلم (١٨/٣٠٣)، وأبو داود، والنسائي؛ من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

و(العَجْب) - بفتح العين-: هو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

وتشبيه المطر بمني الرجال ورد في حديث ضعيف. انظر: «شرح الطحاوية» (ص:٤١٠).

وتقييده بأربعين يومًا ورد في حديث ضعيف أيضًا. انظر: «البعث» لابن أبي داود (ص٧٩).

والذي ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما بين النفختين أربعون»، وأبَى أبوهريرة أن يحدِّدها بيوم أو شهر أو سنة. والله أعلم.

ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[يس:٥٢].

[الحشر]

ثم تحشرهم الملائكة إلى الموقف حفاةً غير مُنْتَعلين، عُراةً غير مكتسين، غُرلًا غير مختتنين؛ جمع أغرل، وهو الأقلف، والغُرلة: القَلَفة.

وأول من يكتسي يوم القيامة إبراهيم؛ كما في الحديث(١).

وهناك في الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويُلْجِمُهم العرق، فمنهم مَن يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم مَن يبلغ ثدييه، ومنهم من يبلغ ترقوته؛ كلٌّ على قدر عمله، ويكون أناسٌ في ظلِّ الله عزَّ وجلَّ.

فإذا اشتدَّ بهم الأمر، وعظُمَ الكرب؛ استشفعوا إلى الله عزَّ وجلَّ بالرسل والأنبياء أن ينقذهم مما هم فيه، وكلُّ رسولٍ يحيلهم على مَن بعده؛ حتى يأتوا نبيَّنا صلى الله عليه وسلم، فيقول: ((أنا لها))، ويشفع فيهم، فينصرفون إلى فصل القضاء.

[نصب لموازين]

وهناك تُنْصَبُ الموازين، فتوزَنُ بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية، كل ميزان منها له لسانٌ وكفَّتان، ويُقلِبُ الله أعمال العباد - وهي أعراضٌ - أجسامًا؛ لها ثقلٌ، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

ثم تُنْشَر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، فأما مَن أُوتي كتابه بيمينه؛

---

(١) يشير إلى ما رواه البخاري (٤٦٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل)).

فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا، [وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره](١)، فسوف يدعو ثبورًا، ويصلى سعيرًا، ويقول: يا ليتني لم أوتَ كتابيه، ولم أدرِ ما حسابيه؛ قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾؛ فقد قال الراغب: «أي: عمله الذي طار عنه من خيرٍ وشرٍّ»(٢).

ولكن الظاهر أنَّ المراد بالطائر هنا نصيبه في هذه الدنيا، وما كُتِب له فيها من رزق وعمل(٣)؛ كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ﴾[الأعراف: ٣٧].

يعني: ما كُتِبَ عليهم فيه.

[الإيمان بالحساب]

(وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المؤمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾: (أي: بشماله من وراء ظهره، تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك)؛ انظر: «تفسير ابن كثير»، سورة الانشقاق، آية (١٠).

(٢) وهذا الذي رجحه ابن كثير في تفسير الآية.

(٣) انظر: «زاد المسير» (٥/١٥)، وقد ذكر لمعنى الآية أربعة أقوال، وهذا الذي رجَّحه الشارح هنا، نسبه ابن الجوزي لأبي عبيدة وابن قتيبة.